الفصل الرابع:

خرائط البناء الفكري

مقدمة:

ينظر هذا الفصل في عدد من أنواع خرائط البناء الفكري، تختص بالمصادر، والموضوعات، والوسائل، والتقويم، والتاريخ، والجغرافيا. ويحاول تحديد العناصر التي تكوِّن كلَّ خريطة، ومن ثَمَّ البرامج التي توضع من أجل استمداد الفكر من مصادره، وضمان التنوع والتعدد في موضوعاته، والتوسل بما يلزم من الأدوات. وخطة التقويم خطة عنصر مهم في أي برنامج، وعلى هذا الأساس يناقش الفصل مسألة التقدير الكيفي والكمي لمستوى ما يتحقق من البناء الفكري عند الأفراد وعند الجماعات، وذلك بما يمكن أن يُبْنَى من أدوات ووسائل القياس والتقويم، وهو ليس أمراً سهلاً، فالخبرات المتوفرة فيه محدودة، وممارسته ليست مألوفة.

والخريطة هي مخطط تمثيلي أو صورة تبين عدداً من العناصر، أو المفاهيم، ومواقعها وعلاقاتها، وبذلك تختصر على القارئ رؤية ما سيقرؤه في الكتاب أو الفصل، مجتمعاً في مكان واحد، وتذكِّرُه بمجموع ما قرأه ليخرج محتفظاً برؤية كلية له، مما يعينه على استدعاء هذه الصورة الذهنية كلما رأى أو استحضر في ذهنه تلك الخريطة.

وقد كان من أساليب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، التمثيل بالإشارة والرمز والرسم. ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، "قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَىٰ هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: " هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا."[1]

وفيما يأتي خريطة مفاهيمية تجتهد في التعبير عن مضمون الحديث النبوي المشار إليه.

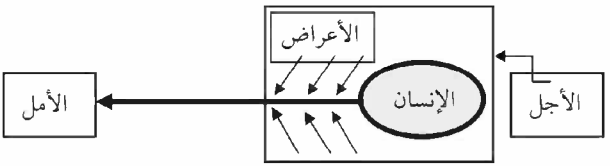

تمثيل تقريبي للخطوط التي يشير إليها نص الحديث النبوي عن أمل الإنسان وأجله

ويتضمن الفصل حديثاً مقتضباً عن تاريخ الأفكار، والدور المحوري الذي نجده للفكر في تاريخ الوعي والممارسة الإنسانية، وحديثاً عن موضوع جغرافية الفكر الذي يلقي الضوء على أثر البيئات الجغرافية المختلفة على خصائص البنية الفكرية التي تتشكّل في هذه البيئات.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله حديث رقم: ٦٤١٧، ص١٥٩٩.

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

قد يكون من المفيد في البداية التأكيد على أهمية التمييز بين أنواع مختلفة من مصادر البيانات، سواءً كان ذلك في الأشخاص، أو الكتب، أو المجلات والدوريات أو المواقع الإلكترونية، ومنها:

- مصادر بيانات المعرفة المتخصصة، وهي مصادر الاستزادة والنمو في مجال التخصص العلمي.
- مصادر بيانات في ثقافة التخصص، مِمَّا يُعدُّ امتداداً لموضوع الاختصاص، لكنه أقرب إلى التبسيط لغير المتخصص، وأقرب إلى مجالات التطبيق العملي الذي يستقطب اهتمام العامة من الناس.
- مصادر بيانات في الثقافة العامة، ولا تصنف هذه المصادر عادة ضمن تخصص محدد، لكنها تتضمن بيانات ومعلومات وحقائق ومفاهيم تتطلبها الحياة الثقافية العامة.
- مصادر بيانات فكرية، وهي مصادر تنتسب في الغالب إلى مدارس فكرية محددة، أو تقدم تحليلات نقدية للمصادر الخاصة بهذه المدارس. وتتداخل هذه المصادر مع مصادر الثقافة العامة، لكنها أكثر تحقيقاً وتحديداً وعمقاً.

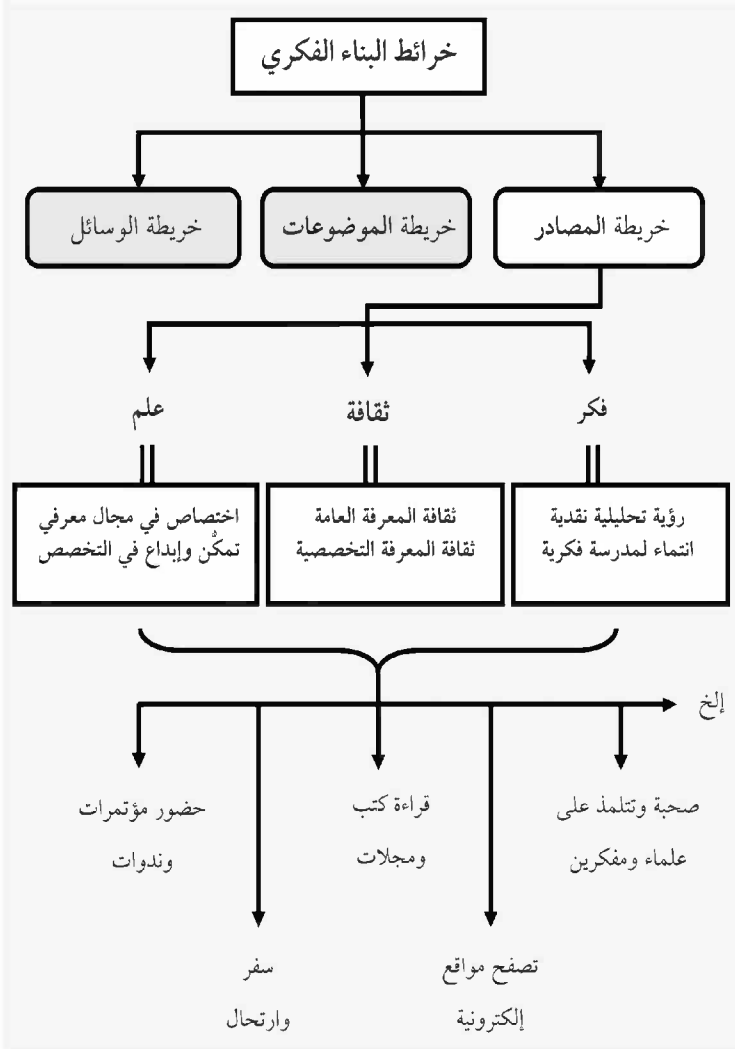
خرائط البناء الفكري
خريطة المصادر
خريطة الموضوعات
خريطة الوسائل
فكر
ثقافة
علم
رؤية تحليلية نقدية
انتماء لمدرسة فكرية
ثقافة المعرفة العامة
ثقافة المعرفة التخصصية
اختصاص في مجال معرفي
تمكُّن وإبداع في التخصص
إلخ
صحبة وتتلمذ على
علماء ومفكرين
قراءة كتب
ومجلات
حضور مؤتمرات
وندوات
تصفح مواقع
إلكترونية
سفر
وارتحال

ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

يعتمد البناء الفكري على المصادر المتنوعة التي تمت الإشارة إليها، وفي السياق الإسلامي تبدو الحاجة ماسة إلى أن تركز الكتب والبحوث والحوارات -التي تفيد في البناء الفكري- على إعادة بناء رؤية كلية للعالم، تمكن الإنسان من إدراك وفهم القضايا والموضوعات المثارة في الفكر المعاصر ضمن هذه الرؤية، بصورة تتصف بالوضوح والتكامل والانسجام. لا سيما الموضوعات التي يكثر حولها الجدل وتتفاوت فيها آراء عامة الناس، والمثقفين منهم على وجه الخصوص، وربما النخب الفكرية كذلك. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

١- **موضوعات بناء الأمة:** وهي اللغة والدين والتاريخ. ذلك أن هذه الموضوعات هي التي تبني الهوية الإسلامية العامة للفرد والمجتمع والأمة، وتحدد من ثم علاقة هذه الهوية بالهويات والانتماءات الفرعية الأخرى مثل الوطنية والقومية والعشائرية والمذهبية...إلخ. فقيمة الفكر الذي ينتجه المفكر هي في فِعْله وأثره في الآخرين، وكيف يتسنى لهذا الفعل والأثر أن يتحققا دون التواصل اللغوي المناسب؟ والدين عقيدة وشريعة أخلاق تتحقق به منظومة القيم العليا في التوحيد والتزكية والعمران. أما التاريخ فهو سجل لخبرة البشرية على الأرض بما في ذلك رسالات الأنبياء، وما لدينا من هذه الخبرة من أفكار حية وعبرة ودروس.

٢- موضوعات القضايا المثارة والقضايا التي يجب أن تثار، فالإعلام المعاصر ينقل للناس بوسائله الفعالة أخباراً وأحداثاً من كل أنحاء العالم. ويثير معها قضايا محددة ومشكلات تتجدد من يوم لآخر، ويتواصل الجدل حولها ويطلب إلى المفكر إن يكون له فهم لها وربما موقف منها. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال: قضايا الفهم الإسلامي للحرية والحرية الدينية، والعلاقات الدولية، ومفاهيم الجهاد، والتحالف والتعايش والمرأة والتنمية...إلخ.

٣- موضوعات الزاد الفكري الذي يسهم في بناء الرؤية الكلية ويقيم البناء الفكري المتوازن، وهي أنواع متعددة، منها:

أ- كتابات في الفكر الإصلاحي والنّهضوي، وتعالج قضايا الفكر ومناهج التّفكير، ومناهج السّلوك، كما تعالج قضايا الحضارات من حيث النشأة والانحطاط وقوانين ذلك، والعلوم المختصة بهذه القضايا مثل فلسفة التاريخ وتاريخ الأفكار.

ب- مداخل العلوم الاجتماعية والإنسانية: ويكفي فيها الإلمام بالمفاهيم والقوانين والنظريات والتطبيقات العملية، واستحضار ذلك عند التفكير في المشكلات المثارة. وربما تكون الأولية لعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الإعلام.

ت- أدبيات ومداخل في علوم التغيير (وهي العلوم التي تساعد على إدارة الذات وضبط تفكيرها): وعلى وجه التحديد الإدارة،

وتطبيقاته في إدارة الوقت، وإدارة الذات، وإدارة الجماعات وعلم المنهجية، وتطبيقاته في التفكير والبحث والسلوك، والتكامل المنهجي، والمدارس المنهجية وعلم النفس. وعلم النفس وقضاياه الأساسية في التعلم والنمو والتغيير.

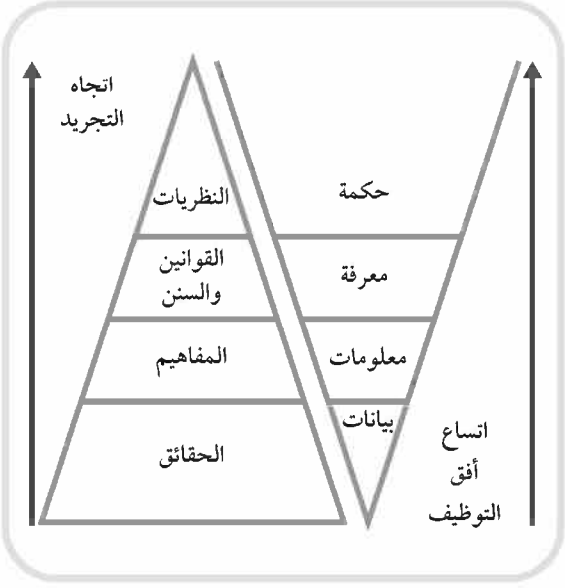

هرم المعرفة وآفاق توظيف مفرداتها

ومهما كان المحتوى العلمي للفكر البشري، علوماً شرعية أو طبيعية أو اجتماعية ... فإن تحليل هذا المحتوى يكشف عن عناصر ذات مستويات متفاوتة في مقاديرها الكمية، وخصائصها الكيفية، وثمة علاقات بنيوية ووظيفية بين هذه العناصر. ومجموع عناصر

هذا المحتوى العلمي تظهر في بناء هرمي له قاعدة وقمّة. ففي قاعدته في أي علم من العلوم، تتموضع حقائق ذلك العلم. لكن الفكر الإنسان يسعى عادة إلى التجريد والاختزال لتقليل العدد الكبير من الحقائق في عدد أقل من خلال ألفاظ مشتركة تسمى المفاهيم. ويسعى الإنسان كذلك إلى إقامة علاقات ارتباطية أو سببية بين المفاهيم، تصاغ في صورة قواعد أو مبادئ أو قوانين أو معادلات، وهذه العلاقات تمثل طبقة ثالثة في هرم المعرفة. وإذا كانت الحقائق والمفاهيم والقوانين هي مستويات وصفية تعبر عن واقع الأشياء كما هي، فإن الذي يفسر ذلك هو مستوى آخر من مستويات البناء المعرفي للعلم يمثل رأس الهرم وهو النظريات.

وثمة طريقة أخرى في التعبير عن مستويات المعرفة العلمية في أي علم من العلوم. وفي هذه الطريقة نعبّر عن أبسط أشكال المعرفة بمصطلح البيانات data التي تقابل الحقائق في هرم المعرفة. ومجموعة البيانات ذات العلاقة بموضوع واحد تشكّل ما نسميه (المعلومات)، وتوظيف المعلومات يحقق (المعرفة)، وأخيراً فإنَّ الغرض من تطبيقات المعرفة وتوظيفاتها هو الرُّقِيِّ بالنفس والمجتمع نحو آفاق مفتوحة من رؤية العالم وما تمثله من (حكمة).

وفيما يأتي خريطة موضوعات البناء الفكري

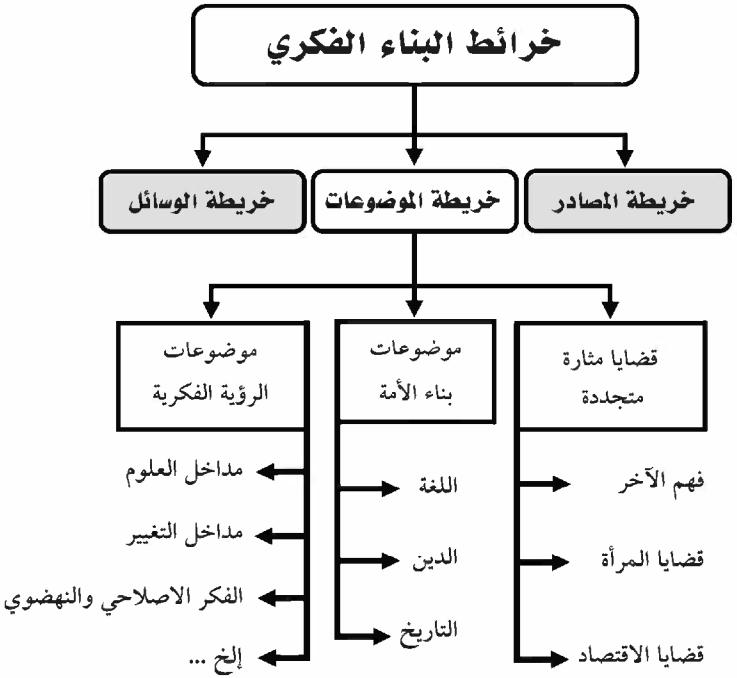

ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

أدوات البناء الفكري ووسائله متعددة، وتُعدّ القراءة النشاط الأساسي لتغذية العقل البشري، والوسيلة الأكثر أهمية للتعلم والتشكيل الثقافي والفكري للفرد؛ القراءة القاصدة، الهادفة، المبرمجة؛ القراءة بأنواعها ومهاراتها؛ القراءة المتأنِّية، المتدبِّرة، المتفكِّرة، المتذكِّرة؛ القراءة الكلية والقراءة النقدية؛ القراءة التي تضع جزئيات النص المقروءة ضمن إطاره المرجعي، وتضع الإطار المرجعي للنص ضمن النظام المعرفي الذي ينتسب إليه، وهكذا.

والكلمة الأولىٰ من كتاب الله الأخير إلىٰ البشرية هي فعل الأمر: اقرأ، وأن الأمر بها يأتي مرتين متتاليتين؛ مرَّة لقراءة الخلق باسم الله، ومرة لقراءة الوحي المكتوب بالقلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١ – ٥] وأن تبقىٰ كلمة اقرأ عهدَ الله للبشر الباقي إلىٰ قيام الساعة، تقول للناس: انتهت عهود الأمية بعد نزول هذه الآيات. فما يقرأ إذاً هو ما يشاهد ويدرس من أصناف الخلق الإلهي، وخلْقُ الإنسانِ من عَلَق نموذجٌ لما يخلق. وما يقرأ كذلك هو ما تنزل من وحي يكتب بالقلم ويكون وسيلة ليتعلم الإنسان ما لم يعلم.

وتستدعي علاقة البناء الفكري بالقراءة أن تقرأ بعض النصوص وبعض الكتب مرة بعد مرة. ويمكن استكمال أهداف القراءة لنصٍّ معين وتحقيق الفائدة من قراءته، عندما يُقرأ معه ما يرتبط به من نصوص أخرىٰ من مصادر المعرفة المشار إليها سابقاً، فتحدث عمليات عديدة من التذكر، والتفكر، والموازنة، والمقارنة، والتكامل. وعندها يضيف القارئ إلىٰ بنائه الفكري فكرة أو جملة من الأفكار، ولو انتقل القارئ من القراءة إلىٰ الكتابة فإنه يكون قد قيَّد الأفكار وضبطها ونظمها، وأصبحت إنتاجاً معرفياً مكتوباً ومادة للقراءة له ولغيره من القراء.

فالقراءة وسيلة من وسائل البناء الفكري، وهي أساس لمعظم الوسائل الآخرىٰ التي أشير إليها بإيجاز، من تفكر وتفاكر، وتذكر وتذاكر، ومحاضرة وندوة ومؤتمر، وبحث ودراسة. ومن الوسائل

المهمة صحبة العلماء، والمفكرين، والمصلحين، والفلاسفة، وأقطاب الصوفية، وأصحاب الخبرات المتميزة، والرحلة للقائهم، والاستماع إليهم، والتتلمذ عليهم. والأنبياء والرسل في المدى الأطول من تاريخ البشر كانوا هم مصدر العلم والهدى، ثم توارثت الأجيال تعاليم الأنبياء والرسل حتى يومنا هذا، فكان منها مذاهب في الفقه، ومدارس في الفكر، وطرق في السلوك. وفيما يأتي رسم تخطيطي لخريطة وسائل البناء الفكري:

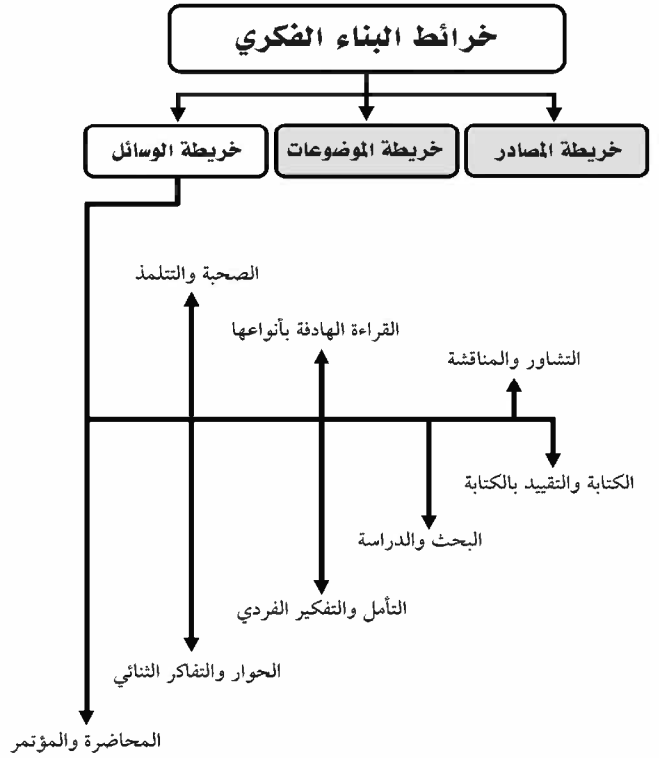

وفيما يأتي رسم تخطيطي مركب لخرائط مصادر البناء الفكري وموضوعاته ووسائله:

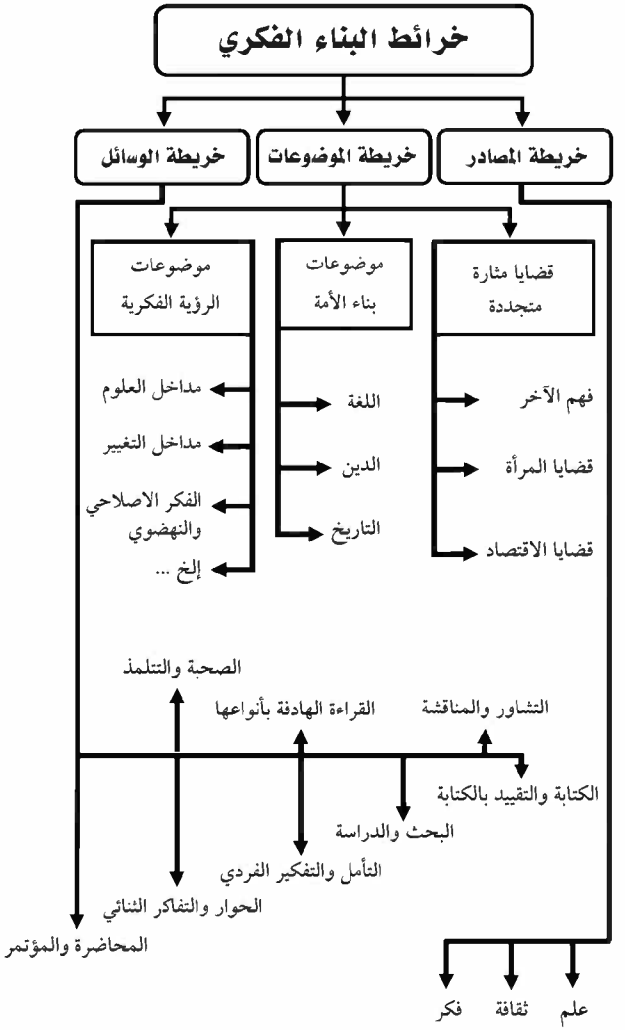

رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

إن عملية تقويم كفاءة أي برنامج لا تقل عن عملية بناء البرنامج وتنفيذه. فما الأداة المناسبة لاستخدامها في هذا تقويم كفاءة برنامج في البناء الفكري؟ ومتىٰ نستخدمها؟ وما الإطار المرجعي اللازم لتحديد المستوىٰ المنشود لنوعية البناء المعرفي، أو مقداره، عند فرد أو فئة أو مجتمع؟ هل نستطيع أن نبنيَ مقياساً مقنَّناً في البناء الفكري؟ ما الخصائص الكيفية والكمية التي يمكن أن نستخدمها في هذا القياس؟ وما وحدات القياس التي تصلح لهذا الغرض؟

إنّ الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة في بُعْدها العلمي-التعليمي "الأكاديمي" تفتقر إلىٰ أدوات القياس المقنَّنة في معظم مجالاتها، وأكثر الحلقات ضعفاً في مجال القياس هو القياس النفسي والعقلي. وقد تكون بلادنا قد اكتسبت شيئاً من الخبرة الذاتية في تطوير عناصر المنهاج التعليمي في الأهداف والمحتوىٰ والأساليب، إلّا أن الخبرة في العنصر الرابع؛ أي التقويم كانت هي الحلقة الأضعف.

وفي سياق الحديث عن البناء الفكري نقترح التأكيد علىٰ الحاجة الماسة إلىٰ نوعين من المقاييس والاختبارات هما: مقاييس العمليات الفكرية، أو درجة ممارسة العمليات أو المهارات العقلية لدىٰ فرد أو فئة من الأفراد، مقاييس درجة امتلاك محتوىٰ محدد من البنية الفكرية بحسب الخريطة الفكرية التي تتوزع فيها عناصر هذا المحتوىٰ.

وللتمثيل على مقاييس الأداء الفكري، يمكن أن نستحضر الاختبارات والمقاييس المستعملة في قياس مهارات التفكير العلمي، أو مهارات التفكير المنطقي، أو مهارات التفكير الإبداعي، أو النقدي، أو مهارات التفكير "من خارج الصندوق" أو القدرة على حل المشكلات... إلخ.

صحيح أنَّ المرجعيات الكمية والكيفية لمعظم هذه الاختبارات هي مرجعيات علم النفس وعلم التربية في مصادرها الغربية، وأنَّ جهوداً مقدرة قد بذلت في هذا المجال من أجل تكييف هذه الاختبارات من تطبيقها في مجالات التحصيل العلمي والتعليمي في بلادنا، لكن أكثر هذه التطبيقات كانت في مجال اللغات والرياضيات والعلوم، وقليل منها في مجالات العلوم الاجتماعية، وأقل من القليل في مجال دراسات العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي.

لقد كان للعقل المسلم قصب السبق في كثير من ميادين التفكير المنهجي، وتطوير نماذج الفكر، وأدوات تقويم الخبرة والكفاءة في التفكير والأداء، فقد عُرفت علومُ الحديث النبوي الشريف ولا سيّما علوم: العلل، والرواية والدراية، والرجال، والجرح والتعديل، ما أصبح بعد ذلك علوماً نقدية بامتياز، وكان علم أصول الفقه علماً منهجياً بامتياز، ونمت منهجية التفكير العلمي المعتمدة على المشاهدة والقياس والتجريب، وتطورت في المجتمع الإسلامي قبل أن يعرفها

أي مجتمع آخر، وتميز ابن خلدون مثلاً باختبار الروايات التاريخية في ضوء الطبائع النفسية والوقائع الميدانية، كل ذلك يؤكد أنَّ العقل المسلم ليس أقل من غيره من العقول على تطوير مناهج التفكير ونماذج الفكر وأدوات القياس.

يتضمن القرآن الكريم والسنّة النبوية مصادر في غاية الغنى لتطوير أدوات لضبط منهجية التفكير، واستنباط الأفكار وصياغتها، وإحسان عرضها وممارستها.

خريطة مقترحة لصياغة فقرات مقياس البناء الفكري

١ - الألفة بمفردات وعناوين وأسماء لفئات المصادر

أ- كتب في العلوم الإسلامية.

ب- مصادر لمشاريع أو مدارس فكرية.

ت- أسماء شخصيات فكرية.

ث- ثقافة عامة عن مجريات الأحداث في الواقع.

ج- ... إلخ

٢ - معرفة بأبرز المضامين والخصائص الواردة أعلاه (في حدود مائة كلمة مثلاً)

أ- كتب.

ب- شخصيات.

ت- مؤسسات ومدراس فكرية.

ث- وقائع وأحداث وقضايا معاصرة.

٣- ممارسة التفكير

أ- في مستويات التفكير: الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم.

ب- في أنواع التفكير: المستقبلي، والسنني، والتكاملي، والمقاصدي...

٤ - برنامج في النمو

أ- وعي على مواقع الحاجة إلى النمو في عناصر البناء الفكري.

ب- تحديد كيفية استكمال الحاجة.

ت- خطة زمنية لاستكمال هذا النقص.

٥ - ... إلخ.

خامساً: خرائط تاريخ الأفكار

يُعنى التاريخ بدراسة الأحداث التي يمر بها الأفراد والمجتمعات في حقبة من الزمن، بالإضافة إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية وغيرها، ويمكن أن يصدق ذلك على دراسة الأفكار ذاتها بما فيها من قيم ومعتقدات، فأحداث التاريخ تعبير عن أفكار أفراد وحركة هذه الأفكار وانتشارها في الزمان والمكان وتجلياتها في ما يقع من أحداث. ومن المفيد الوقوف على التيارات الفكرية التي نشأت أو سادت في المراحل الزمنية المتلاحقة، لمعرفة نقاط الالتقاء أو التمايز بين أفكار هذه التيارات، وأثرها في التشكيل الثقافي والحضاري لواقع الأمة، في تلك المراحل الزمنية. وهذا ما يدرس عادة ضمن مبحث له أهمية خاصة بعنوان: علم تاريخ الأفكار.

إن وحدات "علم تاريخ الأفكار" هي الوحدات الفكرية، التي يسعى المتخصص في هذا العلم إلى اكتشافها، وتتبع ما يطرأ من ارتباط أو انفصال فيما بينها، مع ملاحظة أن الوحدات الفكرية تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكّن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانهيار الثقافات والحضارات البشرية.[1]

---

(١) مثال على الوحدة الفكرية: فكرة التطور العضوي أو نظرية داروين، وقد بدأت في صورة نظرية لتفسير نشوء الأنواع الحية، لكن الفكرة وجدت انتشاراً واسعاً في العلوم الأخرى، وهاجرت من موقعها في علم البيولوجيا، إلى علم الاجتماع وعلم السياسة، فعرفت الداورينية الاجتماعية والدارونية السياسية.

ومن المهم لكل صاحب اختصاص أن يتتبع تطور الأفكار في مجال اختصاصه، فحالة المعرفة في ذلك التخصص، ليست انبثاقاً فجائياً، وإنما تشكلت عبر أحداث متتابعة على مر القرون، وكانت هذه الأحداث أفكاراً تجسدت في صورة وقائع دوَّنها التاريخ.

وللتمثيل على حقل السياسة نشير إلى موسوعة للأفكار السياسية صدرت في فرنسا، وأرَّخت بقدر من التفصيل للأفكار السياسية في أوربا من اليونان إلى القرن الثامن عشر. وما الأفكار السياسية المعاصرة إلا مراحل لاحقة لتطور تلك الأفكار. وقد تُرجمت هذه الموسوعة إلى العربية ونُشرت في ثلاثة مجلدات بعنوان تاريخ الأفكار السياسية.[1] ويوضح الكتاب الفرق بين المذاهب السياسية والأفكار السياسية، فتاريخ المذهب جزء من تاريخ الأفكار، وتاريخ الأفكار لا ينفصل عن تاريخ المؤسسات وتاريخ المجتمعات وتاريخ الوقائع والمذاهب الاقتصادية، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأديان، وتاريخ الآداب، وتاريخ التقنيات.[2]

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

ينصرف مصطلح الفكر الجغرافي إلى المعرفة التي اكتسبها الإنسان عن الأرض ودوَّنها في صورة علوم، وهي علوم يعود تاريخها

---

(١) توشار، جان. **تاريخ الأفكار السياسية**، ترجمة: ناجي الدراوشة، دمشق: دار التكوين، ٢٠١٠م، ثلاثة مجلدات.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٦.

المعروف إلى أكثر من أربعة آلاف سنة.[1] ويشمل المصطلح كذلك الأفكار والنظريات الفلسفية التي تختص بتشكل الأرض وظهور أشكال الحياة عليها. لكن الدراسات أخذت في القرن العشرين تعطي أهمية كبرى للحياة البشرية ومتطلباتها في الفضاء المكاني، أكثر من تفاصيل المكان نفسه، وظهرت مفاهيم محدودية الموارد على الأرض، وتزايدت دراسات الفقر وتعمق الوعي على التدمير، الذي أخذ يصيب البيئة الطبيعية مع الإسراف في استخدام الموارد وإنتاج الملوِّثات، واحتلت الظواهر الاجتماعية والاقتصادية لحياة الإنسان أولوية في الفكر الجغرافي، ودراسات البيئة الطبيعية.

وإذا كان الفكر الجغرافي يدرس موضوعات علم الجغرافيا والفروع العديدة لهذا العلم، ومن هذه الموضوعات قضايا العلاقة التبادلية بين الإنسان والبيئة الجغرافية، فقد أخذت هذه العلاقة مذاهب شتى، وظهر فيها كثير من المفاهيم والمصطلحات، ومنها على وجه التحديد مصطلح جغرافية الفكر.

والدراسات الحديثة في الموضوع ترى أن التنوع والاختلاف في الأبنية الفكرية للشعوب والأمم في البيئات الجغرافية المختلفة، ليس بالضرورة نتيجة أثر جغرافية المكان وما تتضمنه من مناخ وتضاريس، وإنما نتيجة عوامل أخرى.

---

(1) Rana, Lalita. *Geographical Thought: A Systematic Record of Evolution,* New Delhi (India), Concept Publishing Compary 2008, p.5.

من ذلك ما تضمنه كتاب "جغرافية الفكر" المنشور عام ٢٠٠٢م،[١] ويعد بحثاً عميقاً في علم نفس الثقافات. وقد حاول المستعمرون الأوروبيون الذين سيطروا على مساحات شاسعة من العالَم أن يستعمروا عقول الشعوب بعد استعمار أرضها، ووظَّفوا من أجل ذلك نتائج الدراسات النفسية والاجتماعية التي كان العلماء في أوروبا وأمريكا ينشغلون بها في نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لا سيما فيما يختص بتطور القدرات العقلية البشرية ومقاييس الذكاء.

وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية والجغرافيا الثقافية، فالجغرافيا السياسية مثلاً تختص بدراسة تأثير الجغرافيا [البيئة الجغرافية] في الأفكار والممارسات السياسية، وأما الجغرافيا الثقافية فهي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية. وثمة كتب ودراسات متخصصة في هذا الموضوع، ونكتفي بالتنويه بالكتاب الذي ألفه مايك كرانغ بعنوان "الجغرافيا الثقافية"، وقد ترجم ونشر بالعربية."[٢]

ومن المهم أن نتذكر في هذا الشأن مفهوماً مركزياً في الدراسات الفلسفية والإعلامية والدينية هو مفهوم رؤية العالم Worldview،

---

(1) Nisbett, Richard E. *The Geograpl y of Thought: How Asians and Westerners think Differen'y and Wl y,* London: Nocholas Brealey Publishing, 2003.

(٢) كرانغ، مايك، **الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية**، ترجمة سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٧، يوليو ٢٠٠٥م. ص ٨.

وكيف أنَّ هذه الرؤية للعالَم تختلف باختلاف البيئات الثقافية والمستوىٰ الحضاري، وأنماط التفكير السائدة في المجتمع، لا سيما أنماط التفكير الديني. ويعد موضوع رؤية العالم فصلاً في تاريخ الأفكار، والتوجهات الإيديولوجية المتعددة مثل التوحيد، والوثنية، والطبيعية، والربوبية، ووحدة الوجود. ومن الواضح أن الدلالات التي يشير إليها مصطلح "رؤية العالم" تتداخل بشدة مع المعتقدات الفلسفية، والدينية. فالمصطلحات الدينية مثل: الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ التي يحاول مصطلح رؤية العالم التعرض لها.

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

إذا كان الفكر صفة للإنسان منذ خلقه الله سبحانه وجعله خليفة في الأرض، وزوّده بالقدرة علىٰ اكتساب الوعي بالذات وبالمحيط الخارجي، وبالحرية في الاستقامة أو الانحراف، وكانت مسؤولية الإنسان أمام الله يوم الحساب مسؤولية فردية، فإنه كان من الطبيعي أن تختلف قدرات الإنسان علىٰ الفهم والإدراك، وتختلف مواقفه في الطاعة والمعصية.

وفي النموذج الإسلامي كان النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنموذجاً في توضيح مفهوم القبول والمحاورة؛ إذ كان في حياته مع الناس هو الحجة

في قبول الأفكار المختصة بالتشريع الإلهي في العقائد والعبادات. ولكنه يراجع رأيه ويقبل فكرة من أفكار أصحابه في مسألة تتعلق بالخبرة في أمور الحياة، ومطلوب منه أن يشاور في هذه الأمور.

وتتفاوت معايير قبول الأفكار وضوابطها بين الناس تفاوتاً كبيراً. وقد عرف الاختلاف في الأفكار في الفِرَق والمذاهب الدينية والدنيوية. وعلى صعيد الفكر الإسلامي، فإنَّ ثمة مبادئ كلية يجتمع على قبولها وتبنِّيها كثير من الناس، من مختلف فئات المجتمع، وتمثل هذه المبادئُ الكلية مرجعيةً لقبول الأفكار أو رفضها. لكنَّنا نجد اختلافاً في تفسير بعض النصوص القرآنية، وتسمح ظنِّيَّةُ الدلالة في معاني كثير من الآيات، باختلاف الاجتهاد في دلالة هذه النصوص. كما نجد اختلافاً في الأفكار المستمدة من بعض الأحاديث النبوية الشريفة، حتى الصحيحة منها، نتيجة للاختلاف في فهم الواقع، وتنزيل دلالة النص على هذا الواقع.

وعند الحديث عن ضوابط قبول الأفكار، يأتي موضوع الحرية الفكرية وضوابطها وحدودها. وهو أمر يختلط غالباً بأنواع أخرى من الحريات، منها حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وفيه من التفاصيل والآراء المتعددة، ما يمكن أن يكشف عن مذاهب في الفكر، تختلف عما أَلِفناه من مقررات فقهية، ولكن الضابط الأكبر في معالجة ذلك ليس الأحكام الفقهية الجزئية التي تأتي من باب الفتاوى، وإنما

الضابط الأكبر هو ما يقتضيه تحقيق المقاصد العامة للشريعة الإسلامية في حق الفرد وحق الأمة وحق الإنسانية.[1]

(١) البحوث والمؤتمرات والندوات التي أنجزت في مجال الحريات الفكرية كثيرة، نكتفي بالإشارة إلى واحدة منها، وهي:

- عطية، جمال الدين. "ضوابط الحريات الفكرية"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد ٩٩ السنة الخامسة والعشرون، يناير-مارس ٢٠٠١م، ص ١٦٧-١٩٦.